الحريّـــة لدى شعراء الرّفض المعاصرين

د.محمّد سعيدي
جامعة مستغانم (الجزائر)

ملخّص :

يسعى هذا المقال إلى تبيان مكانة الحريّة لدى شعراء الرّفض العرب المعاصرين ، وهيّ مكانة سامقة لا شكّ. إذ إنّنـــا لا نتصوّر إبداعا بلا حريّة ، أو مبدعا يرزح تحت الاستبداد والبطش . فلا شعر بغير حريّة .

الكلمات المفتاحيّة : الشّعر ــ شعراء الرّفض ــ الإبداع ــ الحريّة ــ الكلمة

Résumé :

Cet article a pour objectif de montrer la place qu’occupe la liberté chez les poètes arabes contemporains de refus. Il est certain que c’est une place primordiale parce qu’il n’y a pas de création sans liberté, ou de poète créateur souffrant de l injustice et de la tyrannie. Il n’y a pas de poésie sans liberté.

Les mots clés : La poésie, les poètes de refus, la création, la liberté, le mot.

Abstract :

This paper aims at showing the place of freedom in contemporary arabic poetry of rejection, there is no doubt that it is a great place, since there is no creation without freedom and no creative poets who suffered from tyranny and unjustice. Without freedom, there is no poetry.

Key words : The poetry, the poets of rejection, the creation, the freedom, the word.

لعلّ أجلّ وأقدس ما يملكه الشّاعر حرّيتُه، هيّ مكمن شخصيته وإبداعه. فإذا قُيِّدت الحريّـــة قُيِّد الإبداع، وتقييـــد الإبداع يعني تساوي الغثّ والسّمين من الشّعر، فيكثر النّفاق وينفق التملّق ويتقدّم التصنّع والتكلّف. ثمّ إذا سعينا للبحـــث عن الصّدق في هذا الشّعر عدنا خائبين كمن يبحث عن شيء مفقود يعزّ عليه وجوده.

إنّ الحريّة والإبداع صنوان لا يفترقان، بل الحريّة في الإبداع أساس في أمّة تنشد الحضارة والتّحضّر؛ «فعلـــى رأس القيم الخلقيّة، قيمة الحريّة، الجوهرة الغاليّة الّتي يجب أن يتمسّك بها كلّ إنسان».[1]

وإنّ أكبرَ هَمٍّ شعراء الرّفض المعاصرين هوّ قضيّة الحريّة، وبفقدانها صنِّفوا رافضين لأنّهم رفضوا نقيضها وهوّ الذلّ والاستبداد، « فإذا كان لكلّ عصر أسطورة أو حلم طاغ فإنّ الأسطورة الّتي تبلورت في أواخر القـــرن الماضـــي وكانت حلم النّاس هيّ أسطورة الحريّة. وقد أسهم في بلورة هذه الأسطورة الكتّـــاب المصـــلحون «الأنتلجنســـيا» فـــي الصّحف والمؤتمرات العربيّة والجمعيّات والأندية. وكانت هذه الحريّة حريّة شعوب وأوطان معيّنة كما كانـــت حريّـــة الإنسان بشكل مجرّد ومطلق »[2].وإذا كانت الحرية منشودة في الإبداع، فهيّ لتحرير الإنسان العربيّ مطلب جـــوهريّ وأساس، وهيّ غاية الشّاعر الغَيْرِيِّ الّذي يعيش لأمّته وشعبه، وهذا ما حدا بكاتب كبير هو أمين الرّيحانيّ بأن يعلـــن: « هدفي في الحياة أن أبذل ما في طاقـــتي كتابةً وخطابةً وعملاً لتحرير الإنسان من قيود الجهل والفقر والخـــوف وإزالـــة الأوهام والأضاليل في العقائد والتّعاليم السّياسيّة والاجتماعيّة والدينيّة. ووسيلتي إليه: الفكر الحرّ والبحث الحرّ والقـــول الحرّ مجرّدا من كلّ تحزّب وأهواء شخصية».[3]

والحقّ إنّ الرّيحانيّ، في هذا القول الّذي هوّ بمثابة المبدأ، يعدّ لسان حال كلّ الأدباء والكتّاب والشّعراء الأحـــرار في الوطن العربيّ بخاصّة، حيث يضيقون ذرعا بالقيود، وحيث الإنسان العربيّ الّذي طالما كبّلته سلاسل الاستعباد و«لا بدّ من الإشارة إلى أنّ موضوع الحريّة في المجتمعات هوّ نسق يُبْنى عليه الإنسان ليكون فاعلا في بيئته متكــاملا مــع أترابه ».[4] ولذلك كان موضوع الحرية عند شعراء الرّفض المعاصرين من أجـلّ الموضـــوعات المطروقـــة فـــي أشعارهم، يرمون من وراء ذلك إلى تحرير الكلمة من التميّع والتفريغ، فالكلمـــة عنـــدهم مســـؤوليّة وجهـــاد، وثـــورة ومواجهة، وهيّ بذلك تكون حاملة رسالة حضاريّة مقدّسة لا يجوز تفريغها من محتواها الرّساليّ، كما لا يصحّ أن تُتَّخذ مطيّة يركبها الشّعراء المتزلّفون والوصوليون لتمييع حقائق الوجود والحياة؛ إذ الأصوب في أمّة كالأمّة العربيّـــة تنشـــد اللّحاق بالرّكب الحضاريّ المعاصر، وتتغنّى بالحريّة والتّحرّر، وقاموس مفرداتها غنيّ بالإباء والعزّة والسّؤدد والأنفـــة ورفض الذلّ والضّيم والانكسار، لَحَرِيٌّ بها أن تحرِّر الشّعراء والأدباء إذ إنّ:« أوّل مـــا ينبغـــي أن تكفلـــه الجماعـــة المتحضّرة للأديب هوّ الحريّة ..الحريّة الحرّة الّتي يأمن معها الغوائل ولا يتعرّض معها لشرّ أو كيد أو هوان. فالأديـــب الحقّ حرّ بطبعه لا ينتظر أن تُهدى إليه الحريّة من أحد غيره، وإنّما تولد معه حريّته يوم يولد وتنمو معه حـــين ينمـــو، وتصحبه منذ يدخل الحياة إلى أن يخرج منها. وهوّ لايؤثر في الدّنيا شيئا كما يؤثر الأدب الحرّ، وهوّ يزدري أدبه أشـــدّ الازدراء ويضيق به أعظم الضّيق إن فقد حريّته في يوم من الأيّام»[5] .

إنّ الكلمة عند شعراء الرّفض بخاصة أسمى من أن توضع في قفص، وأجـــلّ مـــن أن تسجـــــن فـــي دهـــاليز المستبدّين والطّغاة، فهيّ «**عصفور حرّ**» عصيّ على التّقييد، ومتمرّد على مقيّديـــه وسالبي حريّته، ومهما كانت دوافـــع أولئك المتحكّمين في مسار الكلمة الشّعريّة، فإنّ شاعـــر الرّفض المعاصر يقول لهم : «لا»، لا للتسـلّط علـــى رقـــاب الشّعراء، ولا لإحاطة الكلمة بسياج سياساتكم ونظام أفكاركم؛ يقول عبد المعطي حجازيّ، وهوّ أحد الشّعراء الّذين ذاقوا مرارة السّجون بسبب كلماته الشّعريّة، في قصيدة «**المجد للكلمة**»، هذا العنوان المكتنـــز بأكثر مـــن دلالـــة، فـــالخلود والعزّة للكلمة الشّعريّة الّتي لا تخضع إلاّ لضمير الشّاعر وقناعتـــه ومراقبتـــه، وَمَا عَدَا ذلك فهوّ دخيل ومتطفّل :

« شكراً للكلمة يا أهل الكلمة
شكراً للفتحة ، شكراً للضمة
شكراً للراوي في الصحراء
شكراً للمطبعة الصماء
يدها البكماء
تكتب ألفاظاً تتكلم
تصرخ ، تتنهد ، تتألم
تبقى
لا تطمسها الظلمة
تجمعنا نسجد للكلمة
الكلمة طير
عصفور حر
والكلمة سحر
أربعة حروف صادقة النبرة
حاء

راء

ياء

هاء

تشعل ثورة

والكلمة روح

لو نطقتها شفة المسيح

وهي تراب

في شفة يهوذا الكذاب

يا شعراء !

يا كتاب

يا حراس الكلمة

حارسة الوحدة ،

جامعة الكلمة » (6)

إنّ فقدان الحريّة « الحاء ، الراء ، الياء ، الهاء » يُشْعِلُ حقّا الثورة، فلا تطيب حياة بمذلّة ولا يُستساغ ذوقها، وإذا سُلِب الإنسان حرّيته فقد سُلبت شخصيّته، وحينئذ لم يبق له سوى رفضه وثورته يعلنها في مواجهة سالبيه وسلاحه يشهره في وجه مغتصبي كلمته، وسنانه يدقّ به جسد أولئك الّذين ما عرفوا قدر الكلمة، ذلك أنّ « الحريّة والتحرّر وإرادة الحياة، ليست مجرّد كلمات، ينتهي صداها بمجرّد النّطق بها، بل هيّ حياة، لأنّ الإنسان في تعريفه ومغزاه وحقيقته، إنّما هوّ كائن حرّ، بحيث إذا باعدنا بيننا وبين الحريّة، فإنّ هذا يعني العدم، والفناء، والانقطاع عن الوجود. الحريّة هيّ نور الحياة. ورفض الحريّة بكلّ صورها السّياسيّة والفكريّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة، إنّما يعني الظّلام وليس النّور، يعني الموت وليس الحياة، ولا أشكّ في أنّ الإنسان - من حيث هوّ إنسان- لا يرضى لنفسه ظلام الفناء والعدم، بل سيسعى بكلّ ما يملك من قوّة نحو حياة النّور والتّحرّر »(7)، ولذلك نجد على مرّ التّاريخ كلّ الشّعراء والأدباء الّذين آمنوا بمفعول الكلمة، وصدقوا في تجاربهم، وجعلوا نصب أعينهم خدمة الإنسان، قد التزموا بخطّ الحريّة ولم يحيدوا عنه، على الرّغم من أنّ هذا الالتزام كان يكلّفهم السّجون والاغتيالات ومصادرة إبداعاتهم، وتاريخنا العربيّ مليء بهؤلاء الضحايا في القديم والحديث(8)، وكان شعارهم ما قال نزار قبّانيّ :

« كان هنالك .. ألفُ امرأة في تاريـــخـــي

إلاّ أنّي لـــم أتزوّج بين نساء العالـــم

إلاّ الحريّـــــــة» (9)

فلا نتصوّر شاعرا رافضا يرضى بقيد من القيود مهما تعدّدت وتنوّعت أشكالها؛ من مناصب أو إغراءات ماليّة أو تهجير أو تهميش، وإلاّ حلّ اللاّشعر مكان الشّعر، وأصبحت الكلمة في إدبار عن أمرها لا تؤدّي وظيفتها، وأضحى الشّاعر رديف المتملّقين الخائنين لأوطانهم ولمجتمعاتهم، وحينئذ تتبخّر رسالة الشّعر السّاميّة؛ « فالكاتب أو الشّاعر لا يمكن أن يكون تابعا لسلطة تقوم على القمع أو قوّة تضع نفسها ضدّ الحريّة، مهما كانت مبرّراتها، لأنّ موقفا مثل هذا يتعارض منذ البداية مع الوظيفة الاستثنائيّة للكتابة وهيّ أن يكون الشّاعر أو الكاتب ضمير التّاريخ، لا آلة داخله، أي محرّرا للتّاريخ من أوهامه.» (10)

وإنّ تحرير الشّاعر والأديب والعالم ومن سرى في ركبهم من أصحاب القلم لهوّ تحرير للأمّة ولأفرادها من عقد الخوف والانفصام، فما الشّعراء في الأخير سوى ألسنة الأمم يفرحون لفرحها ويحزنون لحزنها، فإذا غنموا التحرّر فإنّ للمجتمع كلّه نعمته، وإن غرموا الاستبداد فلكلّ المجتمع نقمته.

إلاّ أنّ موضوع الحريّة في المجتمعات العربيّة شبيه جدّا بالمأساة، وإنّ الحريّة نفسها تسير باحتشام مطأطئة الرّأس لا تكاد تبرز في هذه المجتمعات، يعاني الفرد من فقدانها كما تعاني الجماعة، لقد حوربت تحت تُهَمٍ شتّى كما طورد المطالبون بها المتشوّقون إليها، بعدما أُلصقت بهم الشّبهات ونعتوا بنعوت هم منها أبرياء:

« أَأَكتب أنّني حرّ، وحتّى الحرف يرسف بالعبودية ؟

لقد شُيِّعَتْ فاتنة، تسمّى في بلاد العرب تخريبا ،

وإرهابا

وطعنا في القوانين الإلهية ،

ولكن اسمها والله ... ،

لكن اسمها في الأصل حريّة »[11]

إنّ أحمد مطر يُعَنْوِنُ قصيدته هذه بعنوان دالّ يبطِّن الكثير من الإيحاءات النّقديّة: «دمعة على جثمان الحرية»، كأنّ الحريّة في الوطن العربي قد ماتت وآن أوان رثائها والبكاء عليها. إذ قد يوصَفُ كلّ من يبتغي حريّته أو يطلبها بكونه مخرّبا أو إرهابيّا أو متعديّا على الذات الإلهيّة أو على المقدّسات، وهيّ تُهَم تُنتقى بدراية وعناية بحسب العصر والبيئة، حتّى يلقى القمعُ والتّنكيلُ قبولا لدى ضعاف العقول من عامّة النّاس. هيّ هذه الحريّة في مجتمعاتنا أمست عورة يَحسُن السّكوت عنها، أو شيئا محرّما يجب اجتنابه.

وبمفارقة جميلة مؤثّرة يصوّر الشّاعر أحمد مطر طبيعة الحريّة في الوطن العربيّ، بل يعلِمنا من خلال العنوان الّذي كُتبت تحته هذه الومضة: «حريّة » أنّ الفرد في هذا الوطن الشّاسع قد يشعر بقليل من الحريّة وهو مأسور، وكأنّ ما هوّ خارج الأسر هوّ سجن كبير يُراقب فيه الفرد ويُطارد:

«حينَما اقتيدَ أسيرا

قفَزَتْ دَمعَتُهُ

ضاحِكَةً :

ها قَدْ تَحرَّرتُ أخيرا ! » [12]

ليست الحريّة حياةً فحسب بل هيّ الإنسان نفسُهُ، فإذا انعدمت الحريّة انعدم الإنسان ولم يَعُدْ له وجود، ولو أُكرِهَ على الاستذلال فستظلّ نفسه وجوارحه توّاقة إلى بصيص من الأمل والنّور يطلّ به على الحياة. ولن يحقّق معنىً لإنسانيته إلاّ في ظلّ الحريّة، ولذلك فقد عُدَّ الاستعباد ضربا من القتل وَ « إنّ الحريّة لا تُفرَض بقرار، بل إنّها تعدّ نوعا من المعايشة والتّلاؤم مع الواقع أوّلا، ثمّ تطوير هذا الواقع. ومن هنا لا تكون الحريّة مجرّد تبرير أو تفسير للواقع، بل هيّ تغيير للواقع »[13]. وهنا يبرز دور الشعراء جليّا في التغنّي بالحريّة وتبيان وجه الجمال فيها، ونبذ الذلّ والضيم، وشحذ هِمَم الحركات التّحرريّة في العالم، وإيقاظ عزائم الثّوريين الّذين يتوقون إلى حياة الكرامة والسّؤدد بعيدا عن الاستبداد، و« إذا كان الجمال -كما يقول هيجل- نمطا معيّنا لتظهير الحقيقة فأولى به أن يكون أوضح تجليّات الحريّة، ولا خير في الأدب إن لم يكن وسيلة للكشف عن الجمال أو درجة ترقى بنا في معارج الحريّة»[14]. فسَعْيُ هؤلاء الشّعراء إلى الحريّة وتحقيقها في الواقع المعيش، إنّما هوّ سعيٌ إلى الجمال في أبهى صوره، جمالٌ يسمو بروح الإنسان ويرقى بأخلاقه، ويحاصر القبح المبثوث في ثنايا بعض النّفوس المريضة، ويحارب النّكد الّذي يعكّر صفو

الحياة، وهذا بعض دور الشّعر المتّصف بالجمال، حينما يكون الشّاعر غَيْرِيًّا ينكرُ ذاته، ويعيش لصالح بنـي الإنسـانيّة قاطبة.

ولَـمّا كانت الحريّة هيّ الإنسان، وهيّ الجمال، كان مطلبها صعبا، فقد خاضت شعوبٌ حروبا ضروسا من أجل الظفر بها، وقدّمت شعوب أخرى قوافل من الشّهداء، وعلى المستوى الفردي، في مجال الفكر والفنـون والآداب، فقـد أُغْتيِلَ نفرٌ كبير من المفكّرين والفنّانين والشّعراء ونُكّل بالبعض الآخر، وسُجِنَ غيرُ قليل منهم، ومازالت تنبئنا الصّـحف والمجلّات السيّارة باستمرار هذه المأساة حتّى أيّامنا. وهذا دافع رئيس وكافٍ للمحافظة على هذه الحريّة والعضّ عليهـا بالنّواجذ، وإحاطتها بسياج من القيم حتّى لا تنفلت من بين أيدينا، لأنّنا حين نفرّط في حريّتنا نكون قد فرّطنا في أقـدس مقدّساتنا، و«حين نتهاون، ولو لحظة واحدة، بالحريّة، لا نستحقّها، لا نستحقّ أن نعيش في ظلّها، ولا يحقّ أن نبكيها أو نتباكى عليها، أو نتكلّم باسمها، وحين نَقْبَلُ، لحظة واحدة، أن يكون هناك شخص واحد لا يتنفّس هواء الحريّة، وحين لا نثور في وجه من يُضَيِّقُ أفقَ الحريّة، أيّا كانت الحجّة، والمناسبة واللّحظة، وحين نغفل لحظـة واحـدة عـن حراسـة الحريّة...حينذاك تصبح الحياة صحراء للشّوك والقشّ واليباس والموت، ونصبح نحن أنفسنا أوّل من ييبس ويموت»[15] ، وهذا إيمان شعراء الرّفض، إذ إنّهم يستمدّون بصيص الحريّة من الاستبداد المحيط بهم، فلا يعرفون يأسا ولا قنوطـا. ولا يتوانون في المطالبة بالحريّة، مهما ادلهمّت الخطوب، متفائلون بالغد المشرق، فاليأس والتوقّف عندهم ضرب مـن الانتحار:

« آهٍ .. مـا أقسى الجدار
عندما ينهض في وجه الشّروق .
ربّما ننفق كلّ العمر .. كي ننقب ثغره
ليمرّ النّور للأجيال .. مَرَّهْ !
... ...
ربما لو لم يكن هذا الجدار..
ما عرفنا قيمة الضّوء الطّليق !! »[16]

أَيْ نَعَمْ، إنّ قيمة الشّيء تظهر عند فقدانه، فلولا الجدار الّذي يرمز إلى السّجون والقهر والظّلـم، لمـا عـرف شاعرنا قيمة الضوء الطّليق الدّال على الحريّة. وهذا هوّ الشّاعر الملتزم حقّا الّذي يزرع التّفاؤل ويـدفع إلـى الأمـل، «ليمرّ النّور للأجيال»: وفي ذلك دلالة على غَيْرِيَّته ومسؤوليته تجاه الأجيال، ولا تهمّه نفسه، ولا تأسره نرجسيّته عـن أن يكون بنّاءً ومصلحا في مجتمعه.

وفي ختام هذا المبحث لا بدّ من التّبيين أنّ شعراء الرّفض لم يكونوا يبحثون عن الحريّة وأجوائها، هروبـا مـن الضّوابط والقواعد الشّعريّة والأدبيّة، كما لم يكن سعيهم إلى التحرّر نفيًا للالتزام بقضايا الفرد والمجتمع. فهـذا يتنـافى ورِسَالَتَهُمْ الشّعريّة والاجتماعيّة، الّتي من أجلها «يرفضون ويقبلون»؛ يرفضون الميوعة في الشّـعر، والإسـفاف فـي التّعبير والضّعف في البناء اللّغوي والتركيب البلاغي، حتّى تستقيم رسالتهم الفنيّة والأدبيّة، ولا يضحّون بجمال القصيدة وفنيّتها على حساب قوّة الفكرة وسموّها.

ومن جانب المجتمع الّذي يمثّل بيئَتَهُمْ وَوَسَطهم، فإنّ شعراء الرّفض يعدّون مجتمعاتهم الهواءَ الّذي منه يتنفّسون، فلا يتنكّرون له، ولا يعتزلون عنه، ولا يتعالون عليه. وإنّ حريّتَهم من حريّته، ولذلك تكثـر فـي أشـعارهم القضـايا الاجتماعيّة والسيّاسيّة، لا تكاد تخلو قصيدة عندهم من الهمّ العربيّ، وعلى رأس هذه الهموم همّ الحريّة.

هوامش الدراسة:

[1] - د.عاطف العراقيّ:دور الفكر المستنير في معركة الحريّة.مجلّة عالم الفكر.وزارة الإعلام.الكويت.العدد3.المجلّد33.يناير/مارس2005. ص:153.

[2] - خالدة سعيد:حركيّة الإبداع.لبنان .بيروت .دار العودة . ط:1.السنة: 1979 .ص: 31 .

[3] - المرجع نفسه. ص: 32

[3] - أسعد قطّان وآخرون: الحرية في أبعادها الحضارية..لبنان.بيروت.تعاونية النور الأرتودكسيّة للنشر والتّوزيع .مطبعة الينبوع.ط:1. السنة:2005 .ص: 9

[5] - طه حسين: خصام و نقد.لبنان.بيروت.دار العلم للملايين.ط:12.السنة:1985.ص:114،113.

[6] - عبد المعطي حجازي: الأعمال الكاملة. مصر.القاهرة.دار سعاد الصباح.ط1. 1993.ص: 197 .

[7] - د.عاطف العراقيّ: دور الفكر المستنير في معركة الحريّة.مجلّة عالم الفكر.وزارة الإعلام.الكويت.العدد3.المجلّد33.يناير/مارس2005. ص:168.

[8] - ينظر:عز الدين فرحات:شعراء خلف القضبان.السعوديّة.الرياض.مكتبة العبيكان.ط:1.السنة:2006.ص:57، وص:83.

[3] - نزار قباني: الأعمال السياسية الكاملة .لبنان.بيروت.منشورات نزار قباني.ج6.ط:2.السنة:1999.ص:152.

[4] - فاضل العزاوي: بعيدا داخل الغابة،البيان النقدي للحداثة العربيّة.سوريا.دمشق.دار المدى.ط:1.السنة:1994.ص:35.

[11] - أحمد مطر: لافتات أحمد مطر.الأعمال الكاملة.لندن.ط:1.السنة:2000.ص:47.

[12] - محفوظ كحوال: أروع قصائد أحمد مطر.الجزائر.نوميديا للطباعة والنّشر.السنة:2007.ص:267.

[13] - د.عاطف العراقيّ: دور الفكر المستنير في معركة الحريّة.مجلّة عالم الفكر.وزارة الإعلام.الكويت.العدد3.المجلّد33.يناير/مارس2005. ص:168.

[14] - صلاح فضل: جماليّة الحريّة في الشّعر.مصر.القاهرة.أطلس للنشر.ط:1.السنة:2005.ص:3.

[15] - أدونيس: فاتحة لنهايات القرن.لبنان.بيروت.دار العودة.ط:1.السنة:1980.ص:20.

[16] - أمل دنقل: الأعمال الشعريّة الكاملة.مصر.القاهرة.مكتبة مدبوليّ.ط:؟ السنة:1995.ص:143.